الحوض الغربي للبحر المتوسط في عهد روجر الثاني (1101-1154م)
"بين أطماع النورمان وضعف القوى الإسلامية"

د. رشيد تومي
قسم التاريخ جامعة الجزائر 2

لا شكّ أنّ استقرار النورمان* في القرن الحادي عشر بجنوب إيطاليا، يُعدّ محطّة فارقة في تاريخ أوربا العصور الوسطى. وكان لهذا الحدث انعكاساته المتشبّعة والعميقة على عالم البحر الأبيض المتوسّط، إذ لم يكد النّورمان يثبّتون أقدامهم في إيطاليا، حتى اشرأبت أعناقهم إلى جزيرة صقلية المحاذية لها. وفي غضون ثلاثين سنة، أحكم النورمان السيطرة عليها بعد أن سقطت مدينة نوطو Noto آخر معقل إسلامي بها عام 484هـ/ 1091م، ودانت لهم في نفس السنة، جزيرة مالطة الواقعة إلى الجنوب من صقلية.

ويرجع الفضل في تحقيق هذا الانجاز، إلى الكونت روجر الأول دي هوتفيل Roger de Hauteville، الذي أدرك بدافع حساسية الموقف، وصائب نظره، وجوب اعتماد سياسة مرنة وحكيمة تجاه مسلمي الجزيرتين، كما التزم بنهج المسالمة وحسن الجوار مع الضفة الجنوبية للمتوسط ممّا سمح باستمرار الواقع الجيوسياسي السائد في المنطقة.

روجر الثاني ودواعي تطلّعاته تجاه شمال افريقيا:

وبعد وفاة الكونت روجر الأول عام 1101م، دخل الحوض الغربي للمتوسط مرحلة جديدة، سُجلت خلالها تطورات سياسية وعسكرية حاسمة، ميّزت بشكل ملحوظ، تاريخ العلاقات بين الضفتين لهذا البحر. وكان مهندس هذا التغيير، هو الكونت روجر الثاني[1]، الذي حمل كل آمال أسرة هوتفيل واختزل في وجدانه، ما اشتهر به أجداده الشماليون "الفيكنج" من روح المغامرة والشجاعة والإقدام. فاق

أباه روجر الأول، بطموحاته الجامحة والمفرطة التي لا تُشبعها المكاسب قط، كما اشتهر بحنكة سياسية رفيعة، تجنّبه خوض المغامرات غير المحسوبة، وعُرف أيضا بدرايته الدقيقة بالأوضاع السياسية للأقاليم المحيطة بعرشه وخاصّة إفريقية* التي يُمارس معها نشاطا تجاريا حثيثا ومربحا[2].

ولا شك أن روجر الثاني، على خلاف أبيه، قد أدرك منذ وقت مبكر، الأهمية الإستراتيجية التي يحظى بها البحر المتوسط، في المجالين الاقتصادي والأمني، وأيقن في ذات الحين، أن احتواء هذا البحر، لن يتم إلا بإحكام السيطرة على سواحله الجنوبية ومن ذلك، شكل هذا المشروع، أحد المظاهر البارزة للسياسة الخارجية النورماندية في المنطقة. وفي إطار هذا المنظور، بات من الضروري إلحاق "بلاد افريقية" بعرشه، لما تمثله من امتداد طبيعي وعمق أمني واقتصادي لتاجه. ومُبرّرُ رُوجر في هذا العدوان، سعيه إلى تجفيف منابع الخطر العسكري الصادر عن الزيريين** بافريقية والذين ما فتؤوا يغيرون على أراضي صقلية وجنوب إيطاليا وكذا حرصه على استئصال شأفة نشاط القراصنة الذي غدت مدينتا طرابلس وجزيرة جربة، منطلقين له مما أثر سلبا على النشاط التجاري والوضع الأمني للمتوسط. وتأتي أيضا تطلعات روجر الثاني تجاه سواحل شمال افريقيا بشكل عام، ضمن توقه الشديد إلى فرض هيمنته على المقدرات الاقتصادية للمتوسط من خلال إحكام القبضة على تجارة الصحراء وتحويل أراضيه إلى مركز ثقل لتجارة البحر المتوسط برمتها وذلك عن طريق فرض سيطرة تامة ومحكمة على خطوط الحركة التجارية الشمالية والجنوبية للمتوسط على حد سواء.[3] وينبغي الإشارة إلى أن صقلية، منذ أن استولى عليها النورمان، أضحت موطئ توقف واستراحة للسفن التجارية الرابطة بين حوضي المتوسط. وشكل مضيق مسينا، معبرا رئيسيا لتجارة المدن الإيطالية، لما يوفره لها من أمن ووقاية من مخاطر القرصنة التي تعجّ بها أعالي ودواخل البحر. ولكن تبقى خارج هذا الخط، كل التجارة المصرية والإسبانية، التي تجد في سواحل بلاد المغرب، محطات طبيعية تفي بأغراضها وحاجتها المنشودة[4]. ويُفيد الباحث الفرنسي شالندن، بأن العلاقة النشيطة

والمستمرة بين ضفتي المتوسط، الشمالية والجنوبية، تفسّر الأهمية القصوى التي يوليها روجر الثاني لمشروع احتلال سواحل شمال افريقيا[5].

علاقة روجر الثاني بإفريقية بعد وفاة أبيه:

الواقع أنّ تصوّرات روجر الثاني حول مستقبل عالم المتوسط، تُنبئ بما ستؤول إليه الأوضاع في هذا الفضاء الاستراتيجي الحساس. غير أنّ روجر، لم يُفصح عن نواياه التّوسعية تجاه افريقية بُعيْد وفاة أبيه، وإنّما ظلّ مُحافظا على جسور العلاقة مع الزيريين، لكن في ذات الحين بات يتربّص بأحوال افريقية ويتحيّن الفرصة لاجتياح أراضيها. وكشف ابن الأثير[6] عن هذا النّفاق والخداع الذين شابا موقف روجر الثاني، وفي ذلك يقول "واقام رجار الفرنجي مظهرا للحسن –الأمير الزيري- انه مهادنة وموافقة وهو مع ذلك يُعمر الشوانيء ويكثر عددها وآلاتها...". وإبّان هذه المرحلة، تميّزت العلاقة الزيرية النورماندية بالتقلب وعدم الاستقرار، جيّدة أحيانا ومتأزّمة تارة أخرى، حيث وصفها آماري[7] بأنّها "دون حرب أو سلم".

محاولات روجر لفرض وجوده في ميدان المتوسط:

على أنّ روجر الثاني في الحقيقة، لم يُفوّت على نفسه الفرصة لاستظهار قوّته العسكرية في ساحة المتوسّط، كلّما وجد سبيلا إلى ذلك، سعيا منه إلى فرض وجوده باعتباره لاعبا جديدا يُحسب له حسابه. وقد عبّر روجر عن هذا السلوك، من خلال تدخّله السافر في الشؤون الدّاخلية للإمارة الزيرية وذلك عندما دبّ الخلاف بين الأمير الزيري، عليّ بن يحي بن تميم (509- 515هـ/ 1116- 1121م) وصاحب مدينة قابس، المسمى رافع، حيث استنجد هذا الأخير بروجر الثاني الذي سيّر أسطوله إلى قابس لفكّ الحصار عليه، لكن هذه النّجدة لم تفلح في تحقيق النّصر لرافع بفضل القوّة التي أعدّها الأمير عليّ فعاد النورمان أدراجهم إلى صقلية خائبين. وعلى كلّ، فإنّ هذه المحاولة العسكرية النورماندية، قد أحدثت توتّرا شديدا في العلاقة بين روجر وعليّ، أبدى كلاهما موقفا متصلّبا حال دون انفراج الأزمة. واعتمد روجر أثناء هذه الأزمة، على خطاب ينمّ عن الغلو

والمكابرة ممّا أثار غيظ عليّ الذي أبى إلاّ أن يُعلن حالة التعبئة، ويُبادر بعرض مشروع الهجوم المشترك على صقلية مع المرابطين -حكام المغرب الأقصى والأوسط- إلاّ أنّه لم يكتُب له إنجاز هذه الأمنية، بسبب المرض الذي ألمّ به، أودى بحياته في يوم الأحد الموافق لـ 22 ربيع الآخر سنة 515 هـ/ 10 جويلية 1121م[8]. على أنّ هذه الهبة الزيرية في الحقيقة، إن لم تسفر عن استئصال أطماع النورمان تجاه افريقية، إلاّ أنّها أبعدت غائلة خطر النورمان عن هذه الأخيرة ردحا من الزمن[9].

وثمّة موقف آخر، برهن خلاله روجر الثاني، على ثقله السياسي في المتوسط، حيث يفيد الراوي اللاتيني، بطرس الشماس، أنّ ثلّة من الرّهبان الكنسيين البندكتيين*، وقعت في أسر قراصنة من إفريقية، فطلب من روجر تحريرهم. وكان أن سعى روجر لدى صاحب بجاية، فنال سراحهم بيسر وسهولة[10]. وهناك محطة ثالثة، شكّلت فرصة لروجر لإبراز وزنه العسكري في هذا البحر وكذا قدرته على فرض الحسم لصالحه. وترجع هذه المناسبة إلى سنة 529هـ/1134- 1135م، حينما استقوى به الحسن الزيري ضدّ بني عمومته الحماديين، حيث تحرّك روجر الثاني بقواته، فأجبر الأسطول الحمادي على الانسحاب من عرض مدينة المهدية، وكاد هذا الأخير أن يتعرّض لدمار ما حق، لولا تدخّل الحسن الذي حال دون ذلك، حقنا لدماء المسلمين[11].

حملة روجر الثاني على مدينة المهدية عام 517هـ/ 1123م:

على أنّ الفرصة التي بات روجر الثاني يتربّص بها بلهف شديد للإجهاز على أراضي الزيريين بافريقية، لم يلبث أن حانت، وذلك عندما تعرّضت مدينة نقوطرة Nicotera بمقاطعة قلورية -جنوب إيطاليا- عام 516هـ/1122م، لهجوم عسكري دبّره جيش المرابطين بقيادة أبي عبد الله ميمون، "فلم يشكّ -روجر- أنّ المحرّك لذلك والمسبب له هو امير افريقية الحسن بن علي لما تقدم بينه وبين ابيه من الوحشة[12]. وقد أوجدت هذه الحملة لروجر، مبرّرا قاطعا لغزو افريقية دون

رجعة، ومن ثمّ قرّر تحريك آلته العسكرية لضرب الحسن في صميم امارته وذلك باحتلال مدينة المهدية الواقعة جنوب مدينة تونس، على الساحل الشّرقي لافريقية.

وتنفيذا لهذا المشروع، بادر روجر بقطع كلّ أنواع الاتّصالات بافريقية والمغرب[13]، ثمّ سيّر أسطوله البحري بقيادة أمير البحر الشهير جورج الأنطاكي* نحو مدينة المهدية، وذلك في شهر جمادى الأولى عام 517هـ/ 1123م. وقدّرت المصادر الإسلامية قوام هذا الأسطول، بحوالي ثلاثمائة مركب وألف فارس[14]. وأمّا من جانب الحسن الزيري الذي بلغته نوايا روجر، فإنّه لم يَرْكن لهذا التحدي، حيث انكبّ على إعداد العدة العسكرية لمواجهته بكلّ شجاعة ومروءة[15]. وقد أثمرت هذه الجهود، إذ تمكّن الجيش الزيري من إنزال هزيمة ساحقة بالقوات النورماندية في جزيرة الأحاسي القريبة من المهدية، عند شمالها "ولم يرجع منها الى صقلية الاّ قدر ماية مركب ولم ينج من الخيل الاّ فرسين"[16]. ولم يجن الأنطاكي من هذه الحملة، سوى ظفره بجزيرة قوصرة، المعروفة أيضا باسم بانتيليريا Pantelleria، الواقعة بجنوب غرب صقلية[17].

لا شكّ أنّ هذه الهزيمة، قد تركت جرحا غائرا في نفس روجر الثاني[18]، ولعلّها أيقنته بأنّ تحرّكه ضدّ البرّ الإفريقي، لن يكون مُهمّة هيّنة، تندرج ضمن رحلة نزهة مشوِّقة. وحاول المؤرّخ ميشال آماري، تبرير هذا الإخفاق الأليم، بكون هذه الحملة، هي مجرّد اندفاع جامح وانتقام فوري، تفتقر إلى خطّة ناضجة تحوي شروط عملية الغزو المنظّمة[19]. وإلى جانب ما أفرزته هذه الهزيمة من اتّساع هوة الجفاء بين النورمان والزيريين وكذا تنامي روح الانتقام لدى روجر تجاه الحسن[20]، تواصل هجوم المرابطين على أراضي النّورمان، حيث غزا القائد محمد بن ميمون، في عام 521هـ/ صيف 1127م، مدينتي باتي Patti وسرقوسة بصقلية. وذكر التيجاني، أنّه "عاث في بلاد لجار وقتل وحمل نساءه سبيا إلى بلاده"[21].

تحالف روجر الثاني مع برشلونة وسافونا:

وفي ظلّ استفزازات المرابطين، وبعد أن أعاد احتلال جزيرة مالطة في هذه السنة[22]، سعى روجر إلى تعزيز مركزه، وذلك بالتقرّب من القوى المسيحية الأوربية الأخرى، ومن تمّ أبرم في جانفي عام 1128م، معاهدة تحالف مع كونت برشلونة Barcelone بإسبانيا، ريموند الثالث Raymond III، تعهّد روجر بموجبها، بإمداد هذا الأخير أثناء صيف عام 1129م، بقوة عسكرية قوامها خمسون مركبا، لمساعدته على محاربة مسلمي الأندلس وذلك انتقاما لهجوم المرابطين على أراضيه. واتّفاق مماثل، عقده روجر مع أمير مدينة سافونا Savone الواقعة بشمال إيطاليا، في يوم 11 مايو من نفس العام[23]. وليس هناك من شكّ، أن هذه السياسة الإئتلافية التي انتهجها روجر، قد أدّت إلى تدعيم جانبه وتعزيز سلطانه، وبلغت هذه المكانة ذروتها، حينما توّج روجر الثاني، ملكا دون منازع على صقلية وجنوب إيطاليا، في 25 ديسمبر عام 1130م[24].

عودة الوفاق بين روجر الثاني والحسن الزيري:

وعلى الرغم مما ناله روجر الثاني من سؤدد، إلاّ أنّه لم يكن في وضع يسمح له بالتفرّغ لمشروعه الإفريقي المتوسّطي، فيما أضحى الحسن في حالة، تعجزه عن ردّ غائلة الخطر النّورماندي الدّاهم، وعليه، آثر الطّرفان الجنوح إلى الهدنة والمسالمة، توّج بعقد اتّفاق صلح بينهما[25]، احتلّ الشّق الاقتصادي ضمّنه موقعا ملحوظا. فمن جانب الحسن الذي يُعدّ المحرّك الأوّل لهذه المبادرة، فقد كان شديد الحرص على اقتناء قمح صقلية كما احتاج إلى صداقة روجر كي يتفرّغ لمواجهة خطر بني عمومته الحماديين. وأمّا روجر من جهته، فإنّه أصبح في أمسّ الحاجة إلى تصدير حبوب المملكة إلى إفريقية، للحصول على المال الضّروري، يُمكّنه من استكمال بناء دولته النّاشئة. وما حثّه أيضا على تأييد فكرة الهدنة، انشغاله بإخماد ثورات الأسياد المحلية، وهو ما حال دون اهتمامه بمشروع غزو افريقية[26].

وهكذا، فإنّ الضّرورة المادية والظّروف الدّاخلية العصيبة التي عاشتها المملكة، هي التي أملت على روجر، سياسة الاعتدال والاتّزان تجاه الزيريين، ممّا يدفع إلى استبعاد طابع المبالغة الذي تميّز به نص ابن أبي دينار والذي يوحي بأنّ الحسن انصاع رغما وكرها لرأي روجر، وقد ورد فيه: "ووقعت بينهما مهادنة وكان ذلك انّ الحسن ارسل اليه بهديّة وصالحه مخافة من شرّه فتمّ الصلح وشرط اللّعين عليه شروطا فقبلها"[27]. وفي رواية أخرى، ذهب المؤلّف بالقول، إلى أن الحسن، أعلن انضواءه تحت لواء التاج النّورماندي كاعتراف بما أسداه له روجر من مساعدة ضدّ الحماديين عام 529هـ/ 1135م، كما سبق ذكره. وقد عبّر ابن أبي دينار[28] عن هذا الحدث، فقال: "رجع الاسطول -النّورماندي- الى صقلية وكتب الحسن كتابا الى الملك رجار يشكره على صنعه وانّه داخل تحت امره ونهيه فتاكدت بينهما المخالصة واستقامت عند ذلك أمور الحسن".

حملات روجر الثاني العسكرية على سواحل إفريقية:

تحسّنت العلاقة بشكل ملموس بين الحسن الزيري والملك روجر الثاني، إلاّ أنّ هذه الصداقة، لم تثن هذا الأخير عن المضيّ قدما لتحقيق مآربه الافريقية، إذ لم تُغمض أجفانه في سبيل التّعجيل بإعداد الآلة الحربية قصد الشّروع في غزو الأراضي الزّيرية[29].

احتلال جزيرة جربة وأبعاده:

ولّما اكتملت التّحضيرات العسكرية وتوطّد سلطانه في إيطاليا، قرّر البدء في تنفيذ حملاته العدوانية. وكانت وجهتها الأولى جزيرة جربة، الواقعة بخليج قابس. وقد نعمت الجزيرة قبل احتلالها، بوضع متميّز ورد ذكره بوضوح عند ابن الأثير[30]، حيث يقول عنها: "كانت جزيرة جربة من بلاد افريقية قد استوت في كثرة عمارتها وخيراتها غير انّ اهلها طغوا فلا يدخلون تحت طاعة سلطان ويعرفون بالفساد وقطع الطّريق". ويُؤكّد الشّريف الإدريسي[31] هذا الواقع بقوله أن: "الشرّ والنّفاق موجودان في جبلتهم وهم أهل فتنة وخروج عن الطاعة".

وفي سنة 529 بداية 530هـ/ ربّما خريف 1135م، سيّر الملك روجر أسطولا عتيدا نحو جربة، تشارك فيه فرق من الجنود المسلمين من أهل صقلية[32]. وبعد معارك ضارية، استبسل خلالها مسلمو الجزيرة استبسالا عظيما، سقطت الجزيرة في قبضة النّورمان. وقد فصّل ابن أبي دينار في وقائع هذه الحملة وما آل إليه مصير هذه الجزيرة، وفي ذلك قال: "ونازل جزيرة جربة وأخذها عنوة بالسّيف وقتل رجالها وسبا حريمها وباعهم في صقلية ورجع اليها من سلم ودخل تحت طاعة رجار وولّى عليها عاملا من قبله وكتب لهم امانا من عنده وجعلهم خَوَلاً له"[33] ثمّ اقرّهم على الجزية[34].

وهكذا، بسط روجر الثاني سيطرته على هذه الجزيرة، دون أن يتحرّك الحسن الزّيري لنجدتها، هذا على الرّغم من تبعيّتها له[35]، وكأنّ احتلالها، بات أمرا مشروعا حتى في نظر المسلمين، جزاء بما يصنعه أهلها من غي وشطط[36].

لا شكّ أنّ إلحاق جربة بتاج النّورمان، يكتسي قيمة ملحوظة لدى روجر الثاني، إذ يعبّر عن إدراكه الحصيف لأهمّية الجزيرة الإستراتيجية ودورها الفعّال في سياسته الإفريقية. ذلك أنّ هذا الفوز في الواقع، لا ينطوي على نية في إخماد جذوة القرصنة فقط، بل يستجيب لرغبة في تحقيق الثّأر لهزيمة الأحاسي عام 517هـ/ 1223م، كما أنّه يُلقي رواسي لقاعدة أمامية، تكفل الحماية لظهر المملكة وتساعد الحملات العسكرية المزمع توجيهها ضدّ افريقية من جهة، كما تسمح بفرض رقابة نورماندية على الحركة التّجارية الرّابطة بين افريقية ومصر والتي سجّلت انتعاشا ملموسا منذ اجتياح الهلاليين على بلاد المغرب من جهة أخرى[37].

وعقب احتلال الجزيرة، بعث روجر الثاني برسالة إلى خليفة مصر الفاطمي، الحافظ لدين الله، (524-544هـ/ 1130-1149م) يُطلعه بما آلت إليه الجزيرة. وكان أن أجابهُ الخليفة بخطاب، يحوي مضمونه، مشاعر الودّ وآيات الاستحسان والتبرير لما صَنَعَهُ روجر، بعد أن اتّخذ سكانها سبيل "العدوان والعدول عن طرق

الخيرات وسبلها واجترائهم في الطغيان على أسباب لا يجوز التغافل عن مثلها واستعمالهم الظّلم تمرّدا وتماديهم في الغيِّ تباهيًا في الباطل وغُلوّا..."، ثمّ برّر الحافظ هذه الحملة بقوله: "فإنّ من كانت هذه حالته حقيق أن تكونَ الرحمة عنه نائية، وخليق أن يأخذه الله من مأمنه أخذة رابية..."[38].

على أنّ هذه الرّسالة، تكشف بجلاء، عن تأييد الحفاظ المطلق لاحتلال روجر جزيرة جربة، غير أنّ المؤرّخ ماريوس كنار M. Canard، يشكّ في صدق موقف الحافظ[39]، لأنّ العلاقة في هذه الفترة، بين آل زيري والفاطميين بمصر، كانت جيّدة. ولعلّ جواب الحافظ، إنّما ينمّ عن حرص هذا الأخير على مسالمة روجر الثاني الذي أخذت سطوته تنمو بشكل مُطّرد في عالم المتوسط، وخاصة أنّ الحافظ، بات مشغولا من جانبه، بدرء الخطر الصليبي عن عرشه، هذا وأضحى حريصا أيضا على ضمان استمرار علاقته الإيجابية بالملك النورماندي، روجر الثاني[40].

غزو روجر الثاني مدينة المهدية عام 536هـ/ 1140-1141م:

الواقع أنّ الحملة على جربة، تعد إيذانا خفيّا بشروع الملك روجر في تحقيق أطماعه بإفريقية، إذ لم يُفصِح صراحة عن نيّته العدوانية تجاه الحسن الزيري، بسبب اتّفاق الصلح الذي يربطه به، لكن لم يتوان في خرق هذه المعاهدة والتّحرّش بالزّيريين كلّما وجد سبيلا إلى ذلك، مثلما فعل مع جزيرة جربة. وتلبية لهذه السياسة الاستفزازية، سيّر روجر أسطوله العسكري سنة 536هـ/1140-1141م للإجهاز على مدينة المهدية، بدعوى استخلاص حقوقه من الحسن الذي تأخّر عن تسديد الدّيون التي أقرضها إيّاه. وجاء تحريك هذا الأسطول بقيادة جورج الأنطاكي، بعد أن علم روجر من جواسيسه بالمهدية "انّ بمرساها مراكب قد استوفت وسقها". وتوّجت هذه الحملة الخاطفة، "بان اخذ منه – اي المرسى- مركبا كان الحسن قد احتفل فيه وشحنه بذخائر ملوكية ليتوجّه بها إلى الحفيظ العبيديّ صاحب مصر وكان ذلك المركب يسمّى نصف الدّنيا"[41].

تصاعد النشاط العسكري النورماندي على سواحل افريقية:

تركت هذه العملية النورماندية الجريئة والمفاجئة، أثرا واخزا في نفس الحسن، ومع ذلك فلم يجنح إلى معاداة روجر لعدم استعداده لأيّة مواجهة عسكرية معه، بل سعى إلى تلطيف أجواء العلاقة بينهما. وفي ذلك، أشار ابن الأثير[42] إلى أنّ الحسن راسل روجر الثاني "وجدّد الهدنة لأجل حمل الغلات من صقلية الى افريقية لان الغلاء كان شديدا والموت كثيراً".

أبرمت الهدنة بين روجر الثاني والحسن الزيري، لكنّها لم تُفلح في صرف التّهديد النّورماندي على سواحل افريقية، حيث وجّه روجر الثاني أسطوله العسكري إلى مدينة طرابلس* في عام 537هـ/ 1142-1143م فضرب الحصار عليها في شهر ذي الحجة/ فصل الصيف. ولم يُرفع عنها إلاّ بعد وصول نجدة إليها. وفي نفس العام، غزا الجيش النورماندي مدينة جيجل بشرق الجزائر، وعاث فيها فسادا ودمارا كما أحرق القصر الذي ابتناه يحي بن العزيز الحمادي للنزهة، ثمّ غادر المدينة وفي قبضته سرب من الأسرى المسلمين.

وبعد هذه السنة، سجّل الغزو النورماندي على هذه السواحل، تصاعدا خطيرا، حيث عاود الأسطول النورماندي عام 539هـ/ 1144-1145م، الكرّة على مدينة طرابلس، فأعملوا فيها وضواحيها قتلا ونهبا. وتعرّضت مدينة برشك -بين مدينتي شرشال وتنس- وجزيرة قرقنة-مقابلة لمدينة سفاقس- لهجوم مماثل، وأوسع فيهما الغزاة النورمان قتلا وفسادا، وسيق الأطفال والنساء في الأسر المهين وبيعوا عبيدا في أسواق صقلية[43].

وقد بعثت هذه الاعتداءات النورماندية السافرة، استنكارا واستياء كبيرين لدى الحسن الزيري، فأرسل... إلى رجار الفرنجي ملك صقلية يذكره العهود التي بينهم فاعتذر بأنّهم غير مطيعين له"[44]، ومن ثمَّ، لم ير في اعتقاده، مانعا لضرب هذه المواقع وتأديب سكانها.

احتلال روجر الثاني مدينة طرابلس عام 541هـ/ 1146م:

على أنّ اللّين والتودّد الذين أبداهما الحسن تجاه الملك النورمادي، وهما يعكسان حقا الوهن الذي ينخر دولته، قد شجع في الحقيقة روجر على التّمادي في عدوانه وكذا إصراره على تقويض أركان العرش الزيري، دون أن يعبأ بالعهود. وعليه لم يلبث أن عقد العزم على معاودة الهجوم على مدينة طرابلس التي لم يغفر لها مقاومتها له عام 537هـ/ 1142م. الواقع أنّه ظلّ يتربّص بأحوالها الدوائر إلى أن حلّت سنة 540هـ/ 1145م، حيث أصاب افريقية قحط شديد، فعرفت جرّاءه مجاعة فظيعة[45]. وقد صوّر صاحب المؤنس[46] هذا المشهد المؤلم، فقال: "وفي هذه السنة -احدى واربعين وخمسماية- كان القحط بافريقية حتى فرّت غالب الناس الى صقلية"، وذكر أبو الفداء[47] أنّه "حصل بافريقية غلاء شديد حتى اكل الناس بعضهم ودام من سنة سبع وثلاثين وخمسماية الى هذه السنة -أي 543هـ- ففارق الناس القرى ودخل اكثرهم الى جزيرة صقلية".

شكّل هذا الوضع العصيب، فرصة ثمينة بالنسبة لروجر، لتوجيه ضربة قاسية لمدينة طرابلس، ومن ذلك، سيّر إليها أسطوله العسكري بقيادة جورج الأنطاكي، قوامه مائتا مركبة. وفي اليوم الثالث من شهر محرم سنة 541هـ/ 15 جوان 1146م، ضرب الحصار على المدينة، وكان باستطاعة أهلها الصمود طويلا، لولا وقوع خلل في عملية الدفاع، بسبب فتنة دبّت بين طائفتين بالمدينة، واستغلّ الجيش النورماندي هذه الفجوة، فنجح في اقتحام أسوار المدينة واحتلالها بعد ثلاثة أيام، أي في يوم الثلاثاء السادس من نفس الشهر/ 18 جوان. وقد أشار التيجاني إلى مشاركة عناصر من مسلمي صقلية في هذه الحملة. وعقب هذا التمكين، تعاطى النورمان لألوان التّنكيل والتخريب داخل المدينة، لكن لم يلبث جورج الأنطاكي أن أمر بإيقاف كلّ أشكال العنف، ثمّ أمّن سكّانها على أموالهم وأنفسهم، فعاد الهاربون حينئذ إلى ديارهم آمنين مطمئنّين[48].

مكث النورمان ستة أشهر بمدينة طرابلس، انكبّ خلالها قائد الحلمة، على تعزيز استحكامات المدينة وتثبيت نفوذ النورمان بها وكذا تنظيم شؤونها الدّاخلية، حيث "أقرّ الجزية على أهلها" "وولّى على البلد الشّيخ ابا يحي بن مطروح التميمي وجعل قاضيهم رجلا منهم يعرف بابي الحجاج يوسف بن زيري وهو صاحب التأليف المعروف بالكافي في الوثائق". ولحماية المسلمين من تجاوزات الطائفة المسيحية، جعل "احكام المسلمين كلّها مصروفة الى قاضيهم ووواليهم ولم يكن النّصراني يتعرّض بشيء من احكامهم".

وبعد أن استتب الأمن والاستقرار بالمدينة واطمأنّ النورمان لولاء سكانها لهم، انسحبوا من المدينة ومعهم رهائن ينتمي أغلبهم إلى بني مطروح. لكن لم يلبث بعد مرور ردح من الوقت، أن أعادوا هؤلاء الرّهائن والتمسوا آخرين من والي المدينة، دون التّدخل في اختيارهم(49). وعلى الرّغم من وجود هذه المدينة تحت الاحتلال النّورماندي، إلاّ أنّ أحوالها الاقتصادية والاجتماعية سجّلت أثناءه، ازدهارا ملحوظا، بفضل العلاقة المتميّزة التي ربطتها بصقلية خاصة وأوربا عامة. وقد عبّر ابن الأثير عن هذا الوضع البديع، بقوله: "واستقامت امور المدينة والزم اهل صقلية والروم بالسفر إليها فانعمرت سريعا وحسن حالها"(50).

حملة روجر الثاني على مدينة المهدية عام 543هـ/ 1148م، ظروفها ونتائجها:

لا شكّ أنّ توالي هذه الحملات النّورماندية على أراضي شمال افريقيا وما انجرّ عنه من تثبيت نفوذ الملك روجر في بعض مواقعها، قد كشف النّقاب عن حقيقة نوايا هذا الأخير التّوسّعية وإصراره على إقرار الاستيطان النّورماندي في غرب المتوسّط. وهكذا، وفي ظلّ غياب قوّة إسلامية تُلجمه وتحبط هذه الأطماع، أزمع روجر مواصلة هذا الاجتياح، واشرأب عنقه هذه المرّة، إلى مدينة المهدية. ولا شكّ أنّ هذه الأخيرة، تشكّل هدفا استراتيجيا في هذه الحركة التوسّعية، لكونها

حاضرة للإمارة الزيرية كما أنّها تحظى بقدرات دفاعية حصينة تحول دون سهولة اختراقها. وقد عبّر عنها المراكشي[51] بقوله: "وهي من معاقل المغرب المنيعة لانّ بنيانها في غاية الاحكام والوثاقة بلغني انّ عرض حائط صورها ممشى ستة افراس في صف واحد ولا طريق لها من البرّ، الاّ على باب واحد والبحر في قبضة من في البلد يدخل الشيني كما هو بمقابلته الى داخل دار الصناعة لا يقدر أحد ممن في البرّ على منعه".

اتّخذ روجر الثاني هذا القرار، في أعقاب الأزمة الدّاخلية التي شبّت بين الحسن الزيري وعامله، يوسف، حاكم مدينة قابس. ذلك ان هذا الاخير، لم يلبث ان استقوى بروجر "وكتب اليه... بتضرّع وبتلطّف وسلّم له ما تحت يده ورضي ان يكون عاملا له". واستحسن روجر هذا العرض لأنّه يكسبه مدينة هامة دون أي عناء أو كُلفة، وبادر الحسن عندئذ، بقتل يوسف واسترجاع مدينة قابس، ممّا جعل روجر يتأثّر ويغتاظ كثيرا، وعن هذا الموقف، قال ابن أبي دينار[52]: "فانف اللعين من ذلك لكون كلّ منهما تحت طاعته فعوّل على غزو المهديّة فحشد جيشا عظيما"، بعد أن حاول دون جدوى الاستيلاء، على مدينة قابس[53].

الواقع أنّ الحملة على المهدية، تنعم بطابع خاص، لأنّها ستضرب قلب الإمارة النابض، كما أنّها ستجري في ظروف متميّزة على الصّعيدين، الأوروبي والافريقي على حدّ سواء، وهي تصبّ كلّها في مصلحة الملك روجر الثاني. فمن جانب أوروبا اللاتينية، فإنّها باتت تعيش تحت تأثير الدّعوة إلى الحملة الصليبية الثانية إثر سقوط إمارة الرها الصليبية -شمال العراق- بيد المسلمين، عام 539هـ/ 1144م. وشكّلت هذه الحملة، فرصة ثمينة لروجر، لتعزيز مركزه في العالم المسيحي، وذلك بالمشاركة في محاربة المسلمين عن طريق الإجهاز على أحد معاقلهم بافريقية، هذا دون أن يحيد قيد أنملة عن مشروعه التّوسعي بالساحل الجنوبي للمتوسط[54]. وأمّا في افريقية فمازلت تحيا تبعات مسغبة شديدة طال أمدها، حيث انطلقت عام 537هـ/ 1141-1142م وبلغت ذروتها عام 542هـ/ 1146-1147م[55].

ويُعبّر ابن الأثير[56]، عن هذه الكارثة التي طالت المغرب كلّه فيقول: "وكانت الشّدة دوام الغلاء في جميع المغرب من سنة سبع وثلاثين إلى هذه السنة - 543هـ/ 1148م- وكانت اشدّ من ذلك سنة اثنين وأربعين"1147م. وممّا زاد تفاقما للوضع الاجتماعي والاقتصادي لافريقية، إقبال روجر الثاني تحضيرا لغزو المهدية، على قطع تصدير الحبوب إليها، باعتباره المزوّد الأول للزّيريين بهذه المادة الأساسية[57]، "واكل الناس بعضهم بعضا وكثر الموت في الناس". كما أشار إلى ذلك أبو الفداء[58].

وهكذا، كان اختيار روجر لهذا التّوقيت لاحتلال المهدية، مناسبا وموفّقا، مُهتبلا فرصة الأوضاع الحالكة التي تواجهها الإمارة الزّيرية حيث اختلّ فيها توازن الدّولة واضطربت شؤونها كما ساد الحرمان وانعدام الأمن واستبدّ اليأس والقلق بنفوس الأهالي عبر أرجاء الإمارة. وعَن هذا المشهد المأسوي، قال ابن الأثير[59]. "وعظم الأمر على أهل البلد... وكان أهل البيت لا يبقى منهم أحد... ولقوا أمرا عظيما... فاغتنم رجار هذه الشّدة".

ولم يلبث روجر الثاني، في عام 543هـ/ ربيع 1148م، "أن عمّر الأسطول وأكثر منه فبلغ نحو مايتين وخمسين شينيا مملوءة رجالا وسلاحا وقوّة وسار الأسطول عن صقلية"[60] قاصدا مدينة المهدية. وفي يوم الاثنين من شهر صفر/ 22 جوان، وصل الأسطول النّورماندي إلى عرض المدينة. ولإضفاء طابع التّمويه على هذه الحملة، راسل جورج الأنطاكي، قائد الحملة، الحسن الزيري، يلتمس منه مساعدة عسكرية، لاسترجاع مدينة قابس وتأديب قتلة يوسف، حليف النورمان، وذلك بموجب اتّفاق الصلح المبرم بينهما والذي تدوم صلاحيته عشر سنوات.

وقبل الإجابة عن هذا الطلب، استشار الحسن نصحاءه من الفقهاء وأعيان المدينة، فيما ينبغي اتّخاذه من موقف ملائم حيال التماس الأنطاكي، فأجمعوا أمرهم على ضرورة قتال النورمان، واثقين ممّا تملكه المدينة من قدرات لتحقيق النّصر[61]. لكن نظرة الحسن، اختلفت عن هذا الموقف، فبناء على رؤيته

الموضوعية لأوضاع الإمارة الاقتصادية والعسكرية، أدرك يقينا، عجز المدينة عن مقاومة مثل هذه الحملة العسكرية الكاسحة، ومن ثمّ آثر الحسن مغادرة المدينة بمعيّة أفراد عائلته وحمل من أمتعته، ما خفّ وزنه. وقد أدّى فرار الحسن، إلى اضطراب أوضاع المدينة، بسبب انتشار الهول والفزع وهجرة الكثير من الأهالي خارج المدينة. وفي ظلّ هذا المشهد الرّهيب دخل جورج الأنطاكي المدينة في يوم الاثنين، ثاني صفر سنة 543هـ/ 22 جوان 1148م، واستولى عليها "بغير مانع ولا مدافع". واشتهر هذا الحدث في المصادر الإسلامية باسم "الكائنة الشنعاء"[62].

دخل جورج الأنطاكي مدينة المهدية غازيا، لكن لم يعامل سكانها بمنطق العنف والانتقام أو بعقلية المحتل الغاشم التي لا تبقي ولا تذر، القائمة على السطو والنّهب وانتهاك الأعراض. ذلك انّ هذا القائد، سلك تّجاه الأهالي، سياسة انطوت على كثير من الحكمة والتّبصر وبعد النّظر، تعكس دون شك، درايته العميقة بأحوال العرب وطبائعهم. وعلى أساس هذا النّهج، سهر الأنطاكي على توفير كلّ أسباب الأمن والعدل والاستقرار وكذا كلّ الشروط للنّهوض بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للمدينة[63]. وعبّر التيجاني[64] بوضوح عن هذه السياسة النورماندية، فقال: "فانّ الفارّين لقوا من المشقّة وعدم الماء ما اهلك اكثرهم الى ان تداركهم جرجير فبعث لهم خيلا يعلمونهم بالأمان فرجعوا إلى بلدهم وفرق عليهم مالا وطعاما اقرضهم ايّاه فصلحت أحوالهم واغتبط النّاس بالمهديّة لما رأوا من عدل النصارى فعمرت أحسن عماره". ولخّص ابن أبي دينار[65] هذه المعاملة البنّاءة أيضا، فقال: "لما دخل المهديّة امر بالكفّ عن القتل والنّهب ونادى في النّاس بالامان ومن له منزل رجع اليه وهدن اهل البلد واحسن لمن رجع واحتوى على دخاير الحسن واثاثه ممّا لا يوصف ولقي بعض اولاده واهله وامّهات اولاده فاحسن اليهم وارسلهم الى صقلية وعمّر عدو الله المدينتين زويلة* والمهدية ودفع للتّجار رؤوس اموال واحسن لفقرائهم وقدم قاضيا راضيا يحكم بين الناس ومهّد قواعد البلدين". ويُفيد ابن الأثير[66]، بأنّ جورج الأنطاكي قد "احسن اليهم –

الاهالي- واعطاهم أموالا جزيلة..."، فيما يؤكّد ابن خلدون، انّه أقرّ سكان المهدية على الجزية[67] دون الضّرائب السائدة الاخرى[68].

يعتبر احتلال النّورمان لمدينة المهدية، ضربة قاصمة للحسن الذي هرب بجلده وانتهى به المقام عند خليفة الموحّدين، عبد المؤمن بن علي الكومي، بمراكش[69]، حيث يعكس انهيار عرش آل زيري الذي أخذ يترنّح منذ أكثر من عقدين، كما يمثّل أيضا، خطوة نوعية نحو تحقيق مشروع الهيمنة النورماندية على غرب المتوسط، ثمّ يشكّل دافعا معنويا قويّا للاستمرار في مدّ النّفوذ النورماندي إلى ما تبقى من مدن افريقية الإسلامية.

دخول مدينتي سوسة وسفاقس تحت حكم النورمان:

وبعد مُضي أسبوع كامل من سقوط المهدية[70]، غزا الجيش النورماندي مدينة سوسة في يوم 12 صفر عام 543هـ/ 2 جويلية 1148م، وفي نفس اليوم، استولى النّورمان عليها دون أن يبدي صاحبها، على بن الحسن، أية مقاومة، حيث آثر الفرار والالتحاق بأبيه ممّا جعل الأهالي يقتدون به، فتركت المدينة طعمة سائغة بيد الغزاة[71]. وفي نفس الشهر، وجّه جورج الأنطاكي حملة ثانية إلى مدينة سفاقس، وعلى خلاف سوسة، فإنّ "اهلها دافعوا بقدر طاقتهم"[72]، ومع ذلك فقد اقتحمها النورمان عنوة في يوم 23 صفر/ 13 جويلية من نفس العام. وعقب أعمال العنف التي اقترفها الجيش النّورماندي، "نودي بالأمان فعاد اهلها فافتكّوا حرمهم واولادهم ورفق بهم وباهل سوسة والمهدية وبعد ذلك وصلت كتب من رجار لجميع اهل افريقية بالامان والمواعيد الحسنة"[73]. ويؤكّد ابن عذاري[74] خضوع المدينة بقوله: "ودخلت في عمل رجار صاحب صقلية"، كما أفاد ابن خلدون[75] أنّ روجر أقرّ أهلها على الجزية.

وعلى غرار ما نفّذه روجر الثاني في طرابلس، أسند إدارة سفاقس لأحد أعيان وعلماء المدينة وفضلائها، ألا وهو الشّيخ أبو الحسن الفرياني*، هذا على الرغم من استقرار فرقة من جنود النّورمان بها[76]، غير أنّ هذا الأخير، تنصّل من هذا

التّكليف، متذرّعا بعدم قدرته على الإيفاء بواجبه بسبب عجزه وكبر سنه، وعندئذ عوّض بابنه، عمر[77]، ثمّ حُمل الشيخ أبو الحسن، رهينة إلى صقلية. وقبل مغادرته المدينة، "قال له بنيا إنّي قد كبرت وأشرفت على الموت وقد صدقت نفسي على المسلمين فانّ أمكنتك الفرصة في هؤلاء النّصارى الذين عندك فانتهزها"[78].

حملة النورمان على إقليبية:

ولمّا استقرّت الأوضاع داخل المدن التي فتحها النّورمان، وتوطّد حكمهم بها، حرّك جورج الأنطاكي أسطوله لاحتلال قلعة إقليبية، وهي قلعة حصينة من سواحل إفريقية، "فلمّا وصل إليها سمعت العرب فاجتمعوا إليها ونزل إليهم الفرنج فاقتتلوا فانهزم الفرنج وقتل منهم خلق كثير فرجعوا خاسرين إلى المهديّة"[79].

فتور النشاط النورماندي في المتوسط:

على أنّ وثيرة النّشاط العسكري للنورمان في غرب المتوسط، لم يلبث أن اعتراها الفتور منذ عام 544هـ/ 1149- 1150م، وانقشع بذلك، التهديد النورماندي على سواحل إفريقية ردحا من الوقت. ويعود سبب هذا الرّكود، إلى انهماك روجر في حروبه ضدّ الإمبراطورية البيزنطية، ممّا استرعى منه، تجنيد معظم قواته البحرية في هذا الصراع. وما أثّر سلبا على سير هذه الحملات الإفريقية أيضا، وفاة القائد جورج الأنطاكي عام 546هـ/ 1151-1152م، والذي ضمن للعرش النورماندي كلّ انتصاراته في إفريقية. ولم يُفلح روجر في ملء الفراغ الذي تركه هذا الأمير، على الرّغم من استخلافه بالقائد فيليب المهداوي وهو من مدينة المهدية، الذي لم يبلغ ما بلغه الأنطاكي من حنكة ودهاء وولاء للعرش[80]. وقد أورد ابن الأثير[81] بوعي وإدراك، سرّ هذه الأحداث، فقال: "وجرى بينهما - النورمان وبيزنطة- حروب كثيرة دامت سنين فاشتغل بعضهم ببعض عن المسلمين ولولا ذلك لملك رجار جميع إفريقية". وعن الأنطاكي، قال عنه بعد وفاته: "فسكنت الفتنة واستراح النّاس من شرّه وفساده ولم يكن لصاحب صقلية من يقوم مقامه".

روجر الثاني يُعيد احتلال جزيرة جربة عام 548هـ/ 1153م:

ولعلّ هذه الظّروف، شجّعت سكان جزيرة جربة لإعلان العصيان، محاولة منهم لكسر نير الاحتلال النورماندي عليهم، واضطرّ روجر إلى قمع هذه الثورة بكلّ عنف وشراسة. وقد وقفت المصادر الإسلامية عند هذه المحطّة الحساسة فورد عن الإدريسي[82]: "ثمّ نافقوا وخرجوا عن طاعة الملك المعظم رجار فغزاهم في هذه السنة -548هـ/ 1153م- بالأسطول فاستفتحها ثانية ورفع جميع سبيها إلى المدينة" -لعلّها بالرمو-. وذكر التّيجاني[83]، أنّ النّورمان "تغلّبوا على الجزيرة ثانية فنقلوا أكثر أهلها سبايا إلى بلادهم ولم يبقوا بها إلاّ من لا بال له".

فتح روجر الثاني مدينة بونة –عنابة– في نفس السنة. "ظروفه وتداعياته":

لا شكّ أنّ تمرّد سكان جربة، قد لفت انتباه روجر الثاني إلى ضرورة الاهتمام مُجدّدا بسياسته الإفريقية[84]، وخاصة إثر الانتصارات العسكرية التي سجّلها الموحّدون في المغرب الأوسط[85] ممّا يعرض لا محالة مكتسبات النورمان الإفريقية للتّهديد والخطر. الواقع أنّ روجر، لم يغفل عن هذه التّطوّرات، حيث ظلّ يترقّب بانتباه وقلق شديدين زحف الموحّدين نحو الشّرق. ولإعاقته، سعى إلى استغلال معارضة أمراء القبائل العربية* للموحّدين، منهم محرز بن زياد وجبارة بن كامل وحسن بن تغلب، فعرض عليهم مساعدته، لكنّهم رفضوها، "وقالوا ما بنا حاجة الى نجدته ولا نستعين بغير المسلمين"[86]. وفي ظلّ تنامي تهديد الموحدين، قرّر روجر احتلال مدينة بونة -عنابة- ليتّخذها قاعدة أمامية يصدّ بها تقدّم الموحّدين نحو افريقية[87].

وفي هذه السنة أي 548هـ/ 1153م، سيّر إليها الملك، أسطولا حربيا تحت قيادة فيليب المهداوي الذي عُرف بارتداده عن الإسلام. وبعد حصار شديد وبمساعدة العرب، استولى على المدينة في شهر رجب/ 22 سبتمبر 21 أكتوبر من نفس العام. وذكر ابن الأثير[88] أنّه "سبا اهلها وملك ما فيها غير انه اغضى عن جماعة من جماعة من العلماء والصالحين حتى خرجوا باهليهم واموالهم الى القرى".

مكث فليب المهداوي بالمدينة، عشرة أيام، ثمّ توجّه إلى المهدية ومعه بعض أسرى المدينة ومنها عاد إلى صقلية لكن، ما إن وصل إليها، حتى قبض عليه الملك، وأمر بمقاضاته أمام محكمة كنسية، فحكم عليه بالإعدام حرقا ونُفّذ فيه العقاب في شهر رمضان/ 20 نوفمبر- 19 ديسمبر[89].

ويعزو ابن الأثير[90] هذا العقاب القاسي الذي أنزل بفليب، إلى سببين أساسيين، أحدهما سياسي، "لما اعتمده من الرفق بالمسلمين في بونة"، والثاني ديني، إذ "يقال أنّه وجميع فتيانه مسلمون ويكتمونه وشهدوا عليه أنّه لا يصوم مع الملك وأنّه مسلم". ويعتبر ابن الأثير هذا التّصرّف، منعرجا في سياسة روجر الإسلامية ومقدمة للنّكبة التي ستحيق بالمسلمين في المملكة، وجاء في روايته[91]: "وهذا -أي إعدام فليب المهداوي- أوّل وهن دخل على المسلمين بصقلية". ويتّفق تفسير ابن الأثير حول سبب إعدام الأدميرال، مع ما ورد في نصّ الكاتب اللاّتيني رموالد السالرني Romuald de Salerne والذي يبرز حرص روجر على حماية الكنيسة وتدعيم أركانها[92]. وأمّا المؤرّخ الفرنسي، شالندن Chalandon[93]، فإنّه يُفنّد هذا الرّأي تماما ويستبعد العامل الدّيني فيما أصاب فليب من جزاء مؤلم، مؤكّدا على روح التّسامح الدّيني التي امتاز بها روجر، وتصرّفه تجاه هذا القائد، إنّما صدر نتيجة لتخاذله ولينه الذين أبداهما عند احتلاله مدينة بونة. وعلى الرّغم من هذا التّباين في الموقفين، فإنّ لروجر ربّما، ما يَدرأ عنه هذا الحكم وهذا يُستشفّ من خلال الموقع الذي يحتلّه المسلمون في جسم الدّولة النّورماندية، وتُعبّر عن هذه الحُظوة أحسن تعبير، المنزلة الرّفيعة التي ينعم بها الشّريف الإدريسي في بلاط الملك.

ولعلّ القساوة والبَطشَ اللذين أراد روجر الثاني إظهارهما تجاه سكان بوبة، على خلاف سياسة اللين والاتزان التي انتهجها مع المدن الإفريقية الأخرى، إنّما تاق جرّاءهما، إلى توجيه إنذار شديد لمن تسوّل له نفسه التّمرّد على التاج النورماندي وكذا إلى إبلاغ اهالي افريقية بتحذيره من مغبة التعامل مع الجيش

الموحدي الزاحف وخاصة أنّه ينوي تحويل مدينة بونة إلى خطّ دفاعي، تقي مكاسبه الافريقية من هذا الغزو الدّاهم من الغرب. ووفق رواية الإدريسي[94]، فإنّ مدينة بونة "هي الآن-سنة 548هـ- في ضعف وقلّة عمارة وبها عامل من قبل الملك رجار من آل حماد"، وهو الحارث بن العزيز أخو يحي الحمادي[95].

إعادة احتلال جزر قرقنة ونهب مدينة تنيس:

وبعد هذا الفوز، اتّجهت حملة نورماندية إلى جزر قرقنة، فأعادت احتلالها[96]، ممّا يوحي إلى أنّ هذه الجزر التي احتلّها جورج الأنطاكي عام 540 هـ/1144-1145م كما سبق ذكره، قد خرجت عن طاعة النّورمان، لكن لا يعرف كيف ومتى وقع هذا الحدث[97].

وقد ورد عن ابن الأثير[98]، أنّ "في هذه السنة 548هـ/ 1153م وصلت مراكب من صقلية فيها جمع من الفرنج فنهبوا مدينة تنيس بالديار المصرية". وأشار إلى هذه الحملة أيضا، أبو الفداء[99]، لكن آماري[100]، يعتقد أنّ المدينة المقصودة في هذين النّصين، هي تينس Ténès بدل تنيس Tinnis وهي تقع غرب مدينة الجزائر العاصمة، والخطأ وقع على أساس الخلط بين الاسمين من قبل الناسخين، كما أن آماري، يستبعد سعي روجر إلى فتح جبهة أخرى على نفسه في الشرق في ظلّ صراعه مع بيزنطة، فضلا عن كونه تربطه علاقة ودّية مع الخلافة الفاطمية بمصر.

روجر الثاني يثبّت الأمن النورماندي في الحوض الغربي للمتوسط:

وهكذا حقّق الملك روجر الثاني مبتغاه في افريقية، اذ تمّت له السّيطرة الكاملة على معظم مواقعها السّاحلية، وعبّر ابن الأثير[101] عن سعة هذه الفتوحات، فقال: "وصار الفرنج من طرابلس الغرب الى قريب تونس ومن المغرب الى دون القيروان". وفي بعض قرارته، لقّب روجر نفسه، "ملك صقلية وجنوب إيطاليا وافريقية"[102]. وعلى حدّ قول المراكشي[103]، فإنّ مدينة تونس، انضوت هي الأخرى تحت طاعة روجر الثاني وحكمها باسمه، ابن خرسان، "ولم يزل عاملا

عليها حتى اخرجه الموحّدون". وقد أوجد روجر جرّاء هذا الواقع، وضعا جيوسياسيا جديدا، تحول الحوض الغربي للمتوسط بموجبه، إلى بحيرة نورماندية، لا يعلو فيها إلاّ صوت الأسطول النّورماندي وأمنه. وبيّن ابن أبي دينار[104] هذا المشهد بقوله: "خافته -أي الملك روجر- جميع البلاد الإفريقية". ويفيد ابن عذاري[105] أيضا في نصّه: "فخاف اهل تونس من اهل هذه السواحل من النصارى". وشكّلت مدينة المهدية رمزا لهذه السيطرة، حيث جعل منها قاعدة أمامية في العمق الإسلامي، عزّزها بحامية عسكرية قوامها ثلاثة آلاف محارب[106]، لتكون قوّة ضاربة تضمن الحماية والاستمرار لهذا النّفوذ الذي مكّن الملك، من فرض رقابة تامة على الحركة التّجارية الرّابطة بين غرب المتوسط وشرقه[107].

وعلى كلّ، فإنّ ما حقّقه النّورمان من نجاح في تغيير الخريطة السياسية في هذا الحوض من المتوسط، إنّما يرجع سببه بالدّرجة الأولى إلى حالة القوى الإسلامية في بلاد المغرب التي افتقرت إلى تلاحم أوصالها وتماسك صفوفها، فضلا عن الأوضاع الاقتصادية المزرية التي شلّت قدرات المسلمين ممّا ألجأ روجر إلى إشهار سلاح الغذاء للتّضييق على إفريقية. وقد أفلح إلى حدّ بعيد في تحقيق هذه الخطة، حيث أخلّ بالتّوازن الدّاخلي للإمارة وأعجز سكانها على التّعامل بنجاعة وفعالية مع التّهديد النّورماندي الجاثم.

الهوامش:

*- يعني هذا المصطلح، رجال الشمال. ينتمي هذا العنصر أصلا إلى شبه جزيرة اسكندناوه، ولكن المقصود بهؤلاء النورمان، العناصر الوافدة من إقليم نورماندیا Normandie -شمال غرب فرنسا- التي استقرّت فيها في إطار غزوات الفيكنج Vikings خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين. وقد نال النورمان هذه المنطقة التي أخذت اسمهم، بموجب اتّفاقية سان كلير على الأبت St Clair –Sur- Epte التي أبرمت عام 911م، بين زعيم هذه الجماعة الشمالية، رولو Rollon وملك فرنسا الغربية، شارل البسيط Charles le Simple (893- 922م). لمزيد من التفاصيل، أرجع إلى: آماري ميكيلي: "تاريخ مسلمي صقلية، إعداد، د. محب سعد إبراهيم، لي مونييه، فلورنسا (إيطاليا)، المجلد الثالث. وانظر أيضا:

Guillaume de Jumièges, Historia Normanorum, Traduction Guizot (F. P. G.), dans collection des Mémoires relatifs à l'histoire de France, Paris. 1826; Orderic Vital, Historia Ecclésiastica, traduction Guizot, dans collection des Mémoires, Paris. 1825, T. II; Guillaume de Pouille, La Geste de Robert Guiscard, Traduction et commentaire Par Marguerite Matthieu, Palermo, 1961; Delarc (O.), Les Normands en Italie, Ernest Leroux, Editeur Libraire de la Société Asiatique, Paris. 1883, PP. 36- 41; Chalandon (F.), Histoire de la Domination Normande en Italie et en Sicile, Libraire Picard et Fils, Paris. 1907, T. I; Laprimaudaie (M. F. Elie de), Les Arabes en Sicile et en Italie, Les Normands en Sicile et en Italie, Challamel Siné, Libraire Edition, Paris. 1868; Gautier d'arc, Histoire des Conquêtes des Normants en Italie, en Sicile, et en Grèce, Paris. 1830.

1- ترك الكونت روجر الأوّل، ولدين، سيمون Simon وروجر. مات سيمون عام 1105م وغدًا روجر الوريث الشّرعي الوحيد للعرش. تولّت أمّه إدليد Adelaide، الوصاية عليه إلى سنة 1112م وعمره سبع عشرة سنة. وبعد وفاة دوق أبوليا وقلورية، وليم بن روجر بورصا، عام 1127م دون وريث، ضمّ روجر الثاني أملاكه إلى حوزته وتوّج في يوم 25 ديسمبر عام 1130م ملكا على النورمان في جنوب إيطاليا وصقلية دون منازع. ارجع إلى: الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، في آماري ميكيلي: المكتبة العربية الصقلية، ليبسك، 1857، ص. 15، 27؛ أحمد عزيز: تاريخ صقلية الإسلامية، نقله إلى العربية وقدم له مع إضافة حواش وتعليقات مناسبة، الدكتور أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب 1389هـ/1980م، ص. 64؛ آماري: تاريخ مسلمي صقلية، مج. الثالث، ص. 340- 341. وانظر أيضا: Chalandon, Op. Cit., T. I, PP. 325- 326, 355-60; Neveux (F.), Le Royaume Normand, dans Actes du Colloque de Cerisy- La Salle, 24-27 Sept. 1992, PP. 26-27; Orderic vital, Op. Cit., T. II, PP. 405, 449-50 ; Guillaume de Jumièges, Op. Cit., P. 239; Bresc (H.), Le Royaume Normand de Sicile, Cycle de Conférences Historiques, 2005- 2006, Thème: Souvenirs de Royaumes disparus, Editions ville de Carqueiranne, France, 2006, P. 7.

*- ينتمي الزيريون، إلى قبيلة صنهاجة البربرية المغربية. سُمّي هؤلاء بهذا الاسم، نسبة إلى زيري بن مناد الصنهاجي، (المتوفي عام 360هـ/ 971م) مؤسس دولة بني زيري بالمغرب الأوسط. عن تفاصيل قيام دولة بني زيري، إرجع إلى: القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الانشاء، ج. 5، القاهرة، 1922، ص. 124- 125؛ حسن حسني (عبد الوهاب): خلاصة تاريخ تونس، تونس، 1983، ص. 105- 114؛ دائرة المعارف الإسلامية، ج. 11، ص. 21- 22.

2- أنظر: Chalandon, Op. Cit., T. I, PP. 367- 368.

قدم الشريف الإدريسي وصفا عن روجر الثاني الذي عُرف أنّه هو الذي استحضره إلى بلاطه ببالرمو. المكتبة الصقلية، ص. 15- 16.

**- تمثل على وجه التقريب، "المغرب الأدنى"، وقد جاء في تعريف ياقوت الحموي "انّ حد افريقية من طرابلس الغرب من جهة برقة والاسكندرية الى بجاية، وقيل الى مليانة". معجم البلدان، المجلد الأول، بيروت، 1955، ص. 228. وعن النشاط العسكري للزّيريين على الأراضي النورماندية في عهد تميم بن المعز، ارجع إلى: المكتبة الصقلية، الكامل، ص. 277؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ص. 447- 448. وانظر أيضا:

Hady (I. R.), La Berberie Orientale sous les Zirides, X- XII^{e} Siècles, Librairie d'Amérique et d'Orient, Adrien- Maisonneuve, Paris, 1962, T. I, PP. 283- 286; Chalandon, Op. Cit., T. I, PP. 202, 205, 209; Deuve Jean, les seigneurs de

l'ombre, les services secrets normands au 12e siécle, Editions Charles colet, 1995, p. 174.

3- ابن الأثير: المصدر السابق، في المكتبة الصقلية، ص. 286؛ آماري: تاريخ مسلمي صقلية، مج. الثالث، ص. 393. وانظر أيضا:

Deuve, Op. Cit., PP. 173-74; Perrin (Ed. Ch.), L'Allemagne, L'Italie et la Papauté de 1125 à 1250, Paris, PP. 78- 79; Chalandon, Op. Cit., T.I, PP. 367- 368.

أشار الكاتبان، الهادي إدريس روجر ودوف Deuve، إلى الموقع الاستراتيجي لجزيرة جربة والدور الذي قد تلعبه في التحكم والسيطرة على الحركة التجارية بين غرب وشرق المتوسط. أنظر: Hady (I. R.), Op. Cit., T. I, P. 346; Deuve, Op. Cit., P. 177.

4- أنظر:. Chalandon, Op. Cit., T. I, P. 368.

5- أنظر: Ibidem.

6- الكامل في التاريخ، الجزء 8، دار الكتاب العربي، بيروت، 1983م، ص. 350.

7- تاريخ مسلمي صقلية، م. الثالث، ص. 366.

8- عن تفاصيل هذه الصفحة من العلاقة النورماندية الزيرية، ارجع إلى المكتبة الصقلية: ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار افريقية وتونس، ص. 535؛ ابن الثير: الكامل في التاريخ، ص. 280- 281؛ ابن خلدون: العبر، ص. 486، 488- 489؛ التيجاني: رحلته، ص. 382- 383، 392- 393؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ص. 454-455.

9- أنظر: Hady (R. I.), op. Cit., T. I, P. 324.

*- نسبة إلى بندكت (480- 547م)، مؤسس النظام الديري Monachisme بغرب أوروبا.

10- آماري: تاريخ مسلمي صقلية، م. الثالث، ص. 363. وانظر أيضا:

Pierre Diacre, Chronica Casinensis, dans Monumenta Germaniae Historica, T. VII, IV, 50, P. 843; Chalandon, Op. cit., T. I, PP. 369- 370.

11- عن هذا الحدث، إرجع إلى المكتبة الصقلية: المؤنس، ص. 536- 537؛ الكامل، ص. 284- 285؛ العبر، ص. 487- 488؛ رحلة التيجاني، ص. 398. وانظر أيضا: آماري (م.)، تاريخ مسلمي صقلية، م. الثالث، ص. 392- 393. وانظر أيضا: Mercier (E.), Histoire de l'Afrique Septentrionale depuis les Temps les plus reculés jusqu'à la conquête Française, Paris, 1888, Tome II, P. 84; Deuve, Op. Cit., P. 177; Hady (I. R.), Op. Cit., T. I, PP. 342- 344.

12- أنظر المصادر في المكتبة الصقلية: البيان، ص. 371؛ الكامل، ص. 282؛ العبر، ص. 487؛ رحلة التيجاني، ص. 393- 394.

13- الكامل، في المكتبة الصقلية، ص. 282؛ رحلة التيجاني، في المكتبة الصقلية، ص. 394- 396.

*- ذكره التيجاني، باسم جرجير بن فلان الأنطاكي، نشأ في بيئة الشام وبالضبط في أنطاكيا. كان عريفا بلسان العرب، التحق ببلاط تميم الزيري بالمهدية فولاه مشرفا على الشؤون المالية للإمارة. ولّما مات تميم، لجأ خلسة إلى صقلية حيث أنزله روجر الثاني منزلة عالية، فغدا إحدى أهم الشخصيات التي اعتمد عليها هذا الأخير في إدارة المملكة. لمزيد من التفاصيل عن هذا القائد، ارجع إلى: رحلة التيجاني، في المكتبة الصقلية، ص. 392؛ العبر، في المكتبة الصقلية، ص. 487؛ آماري، تاريخ مسلمي صقلية، مج. الثالث، ص. 354-

355؛ الباجي المسعودي (ت. 1297هـ/ 1879- 1880م): الخلاصة النّقية في أمراء إفريقية، تونس، 1283هـ/ 1866م،ص. 51. وانظر أيضا: Chalandon, Op. Cit. T. I, PP. 374 275. -375

14- عن حجم القوة النورماندية، ارجع إلى المكتبة الصقلية: البيان، ص. 372؛ المؤنس، ص. 536؛ الكامل، ص. 282؛ العبر، ص. 487؛ رحلة التيجاني، ص. 395- 396.

ورد عن المؤرخ اللاتيني وليم الصوري، خبر إرسال روجر الثاني هذا الأسطول إلى المهدية لكن أدرجه ضمن سنة 1127م، وقدّر حجمهُ بأربعين مركبة. أنظر: Guillaume de tyr, Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum, Traduction Guizot (f. P. G.), dans Collection des Mémoires Relatifs à l'histoire de France depuis la Fondation de la Monarchie Française jusqu'au 13e Siecle, Paris, 1824, T. II, P. 297.

15- عن استعدادات الحسن، ارجع إلى المكتبة الصقلية: المؤنس، ص. 536؛ الكامل، ص. 283؛ البيان المغرب، ص. 371؛ رحلة التيجاني، ص. 394.

أورد ابن مُيسر رواية تفيد بأن الحسن، راسل الخليفة الفاطمي، يلتمس وساطه لحمل روجر الثاني على العدول عن نيته في العدوان على أراضيه. وحكم الراوي على هذا المسعى الدبلوماسي، بأنّه توّج بالنجاح، فتمّ الصلح بين روجر والحسن. الواقع أنّ هذه المساعي، إذا كانت قد جرت في هذا التاريخ، فإنّها لم تثمر قط في إقرار السلم بين النورمان والزيريين، ويدلّ على ذلك الاصطدام المسلح الذي وقع في جزيرة الأحاسي قرب مدينة المهدية. والذي لم يشر إليه ابن مُيسر تماما، ومن ثمّ، يرجّح أن يكون هذا الحراك الدبلوماسي، قد حدث قبل سنة 1223م. ارجع إلى: ابن مُيسّر: أخبار مصر، في Recuiel des Historiens des croisades, (Hist. Or.), Tome III, Paris, 1884, P. 468. وانظر أيضا: Hady (I. R.), Op. Cit., T. I, PP. 337-338.

16- عن تفاصيل هذه الحملة النورماندية وفشلها، ارجع إلى المكتبة الصقلية: المؤنس، ص. 536؛ البيان، ص. 371- 372؛ الكامل، ص. 283-284؛ رحلة التيجاني، ص. 394- 397؛ العبر، ص. 487. وانظر أيضا: Chalandon, Op. Cit., T. I, PP. 376- 377; Hady (I. R.), Op. Cit., PP. 335-337. -135

17- أنظر المصادر في المكتبة الصقلية: الكامل، ص. 282- 283؛ العبر، ص. 487؛ المؤنس، ص. 536؛ رحلة التيجاني، ص. 396.

18- رحلة التيجاني، في المكتبة الصقلية، ص.398. وانظر أيضا: Hady (I. R.), Op. Cit., T. I, P. 338.

19- تاريخ مسلمي صقلية، م. الثالث، ص. 374.

20- أنظر: Hady (I. R.), op.cit., T.I, P.338.

21- رحلته، في المكتبة الصقلية، ص.398. وانظر أيضا: Guill.de Tyr, op.cit., T.II, p.298; Chalandon, op.cit., T.I, p.377, Hady (I. R.), op.cit., T.I, P.338.

22- أمارى: تاريخ مسلمي صقلية، م. الثالث، ص. 382. وانظر أيضا: Chalandon, op.cit., T.I, P. 377; Hady (I. R.), Op. Cit., T. I, P. 338.

23- أمارى: تاريخ مسلمي صقلية، م. الثالث، ص. 382-384. وانظر أيضا: Chalandon, op.cit., T.I, PP. 378- 79; Hady (I. R.), Ibidem.

24- أنظر: Orderic vital, Op. Cit., T.II, Paris, 1825, P. 450; Chalandon, op.cit., T.II, PP. 1-2; Hady (I. R.); op.cit., T.I, P.338.

25- ذكر هذا الصلح، كل من ابن أبي دينار والتيجاني. أنظر المكتبة الصقلية: المؤنس، ص.536؛ رحلة التيجاني، ص. 398.

26- آمارى: تاريخ مسلمي صقلية، مج. الثالث. وانظر أيضا: Chalandon, op.cit., T.II, PP.157-158; Hady (I. R.), op.cit., T.I, P.343.

27- المؤنس، في المكتبة الصقلية، ص. 536.

28- المصدر نفسه، ص. 537.

29- أنظر: Hady (I. R.), op.cit., T.I, P.344.

30- الكامل، في المكتبة الصقلية، ص.286. وانظر أيضا: رحلة التيجاني، في المكتبة الصقلية، ص. 456.

31- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نقلا عن توفيق الطيبي أمين: العلاقات بين جزيرتي جربة وصقلية في أواخر القرون الوسطى (1100- 1500م)، ضمن مجلة البحوث التاريخية (مركز دراسة جهاد الليبيين ضدّ الغزو الإيطالي)، العدد الأول، يناير، 1984، ص. 143.

32- ابن أبي دينار: المؤنس، في المكتبة الصقلية، ص.537. ذكر الإدريسي آخر عام 529هـ، وأشار كل من ابن أبي دينار وأبي الفداء والنويري والتيجاني، إلى سنة 529هـ، فيما أورد ابن عذاري وابن خلدون، سنة 530هـ.

33- المؤنس، ص. 537.

عن هذه الحملة، ارجع أيضا إلى المكتبة الصقلية: نزهة المشتاق، ص.73؛ الكامل، ص.286؛ البيان، ص.372؛ نهاية الارب، ص. 456- 457؛ المختصر، ص. 415؛ رحلة التيجاني، ص.384؛ العبر، ص. 496، 498. وانظر أيضا: آمارى: تاريخ مسلمي صقلية، م. الثالث، ص. 394-395. وكذلك: Chalandon, op.cit., T.II, P.159; Hady (I. R.), op.cit., T. I, PP. 345-46; Mercier, op.cit., T.II, PP.84-85; Deuve, Op. Cit., P. 177.

34- ابن خلدون: العبر، في المكتبة الصقلية، ص. 498.

35- أمين الطيبي: المرجع السابق، ص. 144.

36- آماري: تاريخ مسلمي صقلية، مج. الثالث، ص. 393.

37- أمين الطيبي: المرجع السابق، ص. 144- 146. وانظر أيضا: Deuve, Op. Cit., P. 177; Hady (I. R.), Op. Cit., T. I, P. 346.

38- الرسالة كاملة عند القلقشندي أبي العباس أحمد بن علي (ت 821هـ/ 1418م): صبح الأعشا في صناعة الانشا، الجزء السادس، القاهرة، 1922، ص. 458- 461.

39- تناول هذا الباحث، هذه الرسالة بالدراسة والتحليل. ارجع إلى:

Canard (M.), Une lettre du Calife Fatimide Al Hafiz (524- 544 H./ 1130-1149) à Roger II, Dans Atti del Convegno Internazionale di studi Ruggeriani, 21-25 Aprile 1954, Vol. I, PP. 125-146.

40- أمين الطيبي: المرجع السابق، ص. 145. وانظر أيضا: Hady (I. R.), Op. Cit., T. I, P. 346.

41- التيجاني: رحلته، في المكتبة الصقلية، ص. 398- 399.

عن هذه الأزمة بين روجر الثاني والحسن الزيري، ارجع إلى المصادر الإسلامية في المكتبة الصقلية: البيان، ص. 372- 373؛ المؤنس، ص. 537؛ الكامل، ص. 286؛ وانظر أيضا: الباجي المسعودي: الخلاصة النقية، ص. 51- 52. وارجع أيضا إلى: Chalandon, Op. cit., T. II, PP. 159- 160; Hady (I. R.), Op. cit., T. I, PP. 347- 348.

42- الكامل، في المكتبة الصقلية، ص. 286.

*- يبدو أنّها خرجت عن طاعة الحسن الزيري، إذ يشير ابن الأثير، إلى أنّها كانت تحت نفوذ قبيلة بني مطروح العربية، بينما يذكر التيجاني، أنّها ظلّت تحت سيطرة بني خزرون الزناتيين حتى سنة 540هـ/ 1145م. أنظر: المكتبة الصقلية: الكامل، ص. 287؛ رحلة التيجاني، ص. 388. 43- عن هذا النشاط العسكري النورماندي في سواحل شمال افريقيا، ارجع إلى مصادر المكتبة الصقلية: نزهة المشتاق، ص. 71- 73؛ المؤنس، ص. 538؛ المختصر، ص. 415؛ الكامل، ص. 287- 288؛ العبر، ص. 498- 499؛ البيان، ص. 373. وانظر أيضا: آماري: تاريخ مسلمي صقلية، مج. الثالث، ص. 399- 401. وطالع أيضا: Hady (I. R.), Op. cit., T. I, PP. 349- 350; Chalandon, Op. cit., T. II, P. 160; Mercier, Op. cit., T. II, P. 85; Golvin (L.), Le Magrib Central à l'Epoque des Zirides, Paris 1957, P. 147.

44- ابن الأثير: المصدر السابق، في المكتبة الصقلية، ص. 288- 289. وانظر أيضا: Hady (R. I.), Op. cit., T. I., P. 350.

45- أنظر: Hady (R. I.), Op. cit., T. I, P. 350.

46- في المكتبة الصقلية، ص. 538. وانظر أيضا: رحلة التيجاني، ص. 388؛ العبر، ص. 500.

47- المختصر، في المكتبة الصقلية، ص. 416.

48- عن هذه الحملة، ارجع إلى المصادر الإسلامية الواردة في المكتبة الصقلية: نزهة المشتاق، ص. 73؛ المؤنس، ص. 538؛ المختصر، ص. 415- 416؛ الكامل، ص. 289؛ العبر، ص. 499؛ رحلة التيجاني، ص. 388- 389؛ نهاية الأرب، ص. 457؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ص. 642. وانظر أيضا: آماري: تاريخ مسلمي صقلية، مج. الثالث، ص. 401- 402.راجع أيضا إلى: Chalandon, Op. cit., T. II, PP. 160- 161; Hady (R. I.), Op. cit., T. I, P. 351; Mercier, Op. cit., T. II, P. 86; Golvin, Op. cit., P. 147.

يعتقد التيجاني، أن الملك روجر احتلّ طرابلس بعد استيلائه على مدينتي المهدية وسفاقس. ويرى الهادي روجر (Hady (R. I.، أن ابن خلدون شاركه في هذا الخطأ، لكن يظهر أن ابن خلدون حافظ على التسلسل الزمني للأحداث، وأما إشارته إلى سقوط المهدية وسفاقس قبل المهدية، فإنه ذكرها في سياق الحديث للتذكير والتأكيد فقط. ارجع إلى المكتبة الصقلية: رحلة التيجاني، في المكتبة ص. 388؛ العبر، ص. 488، 499. وانظر أيضا:

Hady (I. R.), Op., Cit., PP. 350-351, Note 272.

49- عن سياسة النورمان الداخلية بطرابلس، ارجع إلى المكتبة الصقلية: الكامل، ص. 289- 290؛ رحلة التيجاني، ص. 389- 390؛ العبر، ص. 499؛ نهاية الارب، ص. 457- 458. وانظر أيضا:
Chalandon, Op. cit., T. II, P. 161; Hady (R. I.), Op. cit., T. I, P. 352.

50- الكامل، في المكتبة الصقلية، ص. 290. ونفس الشهادة وردت لدى النويري، نهاية الأرب، وأبي الفداء: المختصر، في المكتبة الصقلية، ص. 458 وص. 416.

51- المعجب في تخليص أخبار المغرب، في المكتبة الصقلية، ص. 319.

52- المؤنس، في المكتبة الصقلية، ص. 538- 539. وانظر أيضا: Hady (I. R.), Op. cit., T. I, P. 353؛ وعن تفاصيل هذا الخلاف الإسلامي وتبعاته، ارجع إلى مصادر المكتبة الصقلية: الكامل، ص. 290- 292؛ العبر، ص. 489، 499- 500؛ رحلة التيجاني، ص. 384. وارجع أيضا إلى: آماري: تاريخ مسلمي صقلية، مج. الثالث، ص. 403- 405. وطالع كذلك: Hady (R. I.), Op. cit., T.I, PP. 353- 355; Chalandon, Op. cit., T. I, PP. 162- 163; Mercier, Op. cit., PP. 86- 87.

53- لعلّ فشل الأسطول النورماندي في اقتحام قابس، إنّما يرجع سببه، إلى انشغال معظم قطعه في الحرب ضدّ بيزنطة ببلاد اليونان. إرجع إلى: Chalandon, Op. cit., T. II, P. 163; Hady (R. I.), Op. cit., T. I, P. 355.

54- أنظر: Hady (R. I.), Op. cit., T. I, P. 355.

55- أنظر: Loc. Cit.

56- الكامل، في المكتبة الصقلية، ص. 292.

57- أنظر:. Hady (R. I.), Op. cit., T. I, P. 355.

58- المختصر، في المكتبة الصقلية، ص. 416.

أشار إلى هذه الأوضاع الاقتصادية المزرية للمغرب، كل من ابن الأثير، الكامل، ص. 292؛ ابن خلدون: العبر، ص. 500 والتيجاني، رحلته، ص. 399، في المكتبة الصقلية.

59- الكامل، ص. 292، في المكتبة الصقلية.

أشار في المكتبة الصقلية، كلّ من أبي الفداء: المختصر، ص. 416؛ وابن خلدون، العبر، ص. 500، إلى اغتنام الملك روجر هذه الشدة.

60- ابن الأثير: الكامل، في المكتبة الصقلية، ص. 292- 293.

اختلفت المصادر في تقدير حجم هذا الأسطول، إذ يتّفق أبو الفداء مع ابن الأثير وذكر ابن خلدون 250 من الشواني ثم 300 مركب، فيما أشار التيجاني، إلى 300 مركب، واكتفى ابن أبي دينار بقوله: "فحشد جيشا عظيما وبعث في مراكب مشحونة بالسلاح وآلات الحرب".

61- على خلاف ابن الأثير وابن خلدون، والنويري فإنّ أبا الفداء، ذكر أنّ الحسن "جمع كبراء البلد واستشارهم فرأوا ضعف حالهم وقلة المؤونة عندهم". ارجع إلى المكتبة الصقلية: الكامل، ص. 293- 294؛ العبر، ص. 501؛ المختصر، ص. 416؛ النويري: نهاية الارب، تحقيق الأستاذ عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج. 24، ص. 137.

62- عن تفاصيل هذا الحدث ارجع إلى المصادر الإسلامية الواردة في المكتبة الصقلية، المؤنس، ص. 539؛ المختصر، ص. 416؛ الكامل، ص. 292- 295؛ رحلة التيجاني، ص. 399؛ العبر، ص. 488، 501؛ أبي زرع الفاسي، كتاب الأنيس المطرّب، ص. 403؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ص. 657؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ص. 642. وانظر أيضا: النويري: نهاية الارب، تحقيق عبد المجيد ترجيني، ج. 24، ص. 137؛ آماري: تاريخ مسلمي صقلية، مج. الثالث، ص. 407- 408؛ الباجي المسعودي، الخلاة النقية، ص. 52؛ سرهنك (اسماعيل): من حقائق الأخبار من دول البحار، الجزء الأول، القاهرة، 1312هـ/ 1894م، ص. 409.

ذكر سهرنك "أن الحسن طلب المساعدة من ملوك الإسلام ولما لم يجيبوه رحل عن المهدية". ويُعد المرجع الوحيد الذي أورد هذه الفكرة. المرجع نفسه.

63- آماري: تاريخ مسلمي صقلية، مج. الثالث، ص. 409- 411.

64- رحلته، في المكتبة الصقلية، ص. 400.

65- المؤنس، في المكتبة الصقلية، ص. 539.

*- ورد عن ياقوت الحموي، أنّ المسافة الفاصلة بين المهدية وزويلة لا تتجاوز رمية سهم أو طول ميدان. معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجُندي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج. الثالث، ص. 180.

66- الكامل، في المكتبة الصقلية، ص. 294- 295.

67- العبر، في المكتبة الصقلية، ص. 501.

68- آماري، تاريخ مسلمي صقلية، مج. الثالث، ص. 410.

69- عن رحلة الحسن الزيري بعد مغادرته المهدية، ارجع إلى مصادر المكتبة الصقلية: الكامل، ص. 295- 296؛ رحلة التيجاني، ص. 400؛ القرطاس، ص. 403.

70- ابن الأثير: الكامل، في المكتبة الصقلية، ص. 296.

71- ارجع إلى مصادر المكتبة الصقلية: المؤنس، ص. 539؛ البيان، ص. 373؛ الكامل، ص. 296؛ العبر، ص. 488، 501- 502؛ نهاية الأرب، ص. 458.

72- ابن أبي دينار: المؤنس، في المكتبة الصقلية، ص. 539.

73- ابن الأثير: الكامل، في المكتبة الصقلية، ص. 296.

74- البيان، في المكتبة الصقلية، ص. 373.

75- العبر، في المكتبة الصقلية، ص. 490، 502.

عن فتح النورمان لمدينة سفاقس، ارجع إلى مصادر المكتبة الصقلية، نزهة المشتاق، ص. 72؛ رحلة التيجاني، ص. 381.

*- هو من فريانة، الواقعة بين قفصة وتبسّة.

76- أنظر في المكتبة الصقلية: الكامل، ص. 301؛ العبر، ص. 503؛ رحلةل التيجاني، ص. 381.

77- أنظر المصادر الإسلامية في المكتبة الصقلية: الكامل، ص.301؛ العبر، ص490، 503؛ رحلة التيجاني، ص.381.

جاء في رواية الادريسي: "ولها عامل من قبل الملك رجار." وقال ابن أبي دينار: "وولى عليهم ولاة من قبله وجاءته وفود العرب وأكابرهم فدخلوا في طاعته". أنظر المكتبة الصقلية: نزهة المشتاق، ص. 73؛ المؤنس، ص.539.

78- التيجاني: نفسه. وانظر أيضا: الكامل، نفسه؛ العبر، نفسه.

التزم عمر بوصية أبيه، حيث نفّذها سنة 551هـ/1156-1157م، عندما "دعا اهل المدينة الى الخلاف" ونجح في تقويض الحكم النورماندي بالمدينة. ارجع إلى نفس المصادر.

79- ابن الأثير: الكامل، في المكتبة الصقلية، ص.296-297. وانظر أيضا في المكتبة: العبر، ص. 502؛ المؤنس، ص.540.

80- أنظر: Chalandon, op.cit., T.II, P.165; Hady (I. R.), op.cit., T.I, P.361.

عن حياة الأدميرال فليب المهداوي، ارجع إلى: آماري: تاريخ مسلمي صقلية، مج. الثالث، ص. 427.

81- الكامل، في المكتبة الصقلية، ص.297. وردت نفس الفكرة عند ابن خلدون: العبر، في المكتبة الصقلية، ص.502.

82- نزهة المشتاق، في المكتبة الصقلية، ص. 74.

83- رحلته، في المكتبة الصقلية، ص.384-385. وردت نفس الفكرة لدى ابن خلدون: العبر، في المكتبة الصقلية، ص.496.

84- أنظر: Hady (R.I.), op.cit., T.I, P.375.

85- عن فتوحات الموحدّين في المغرب الأوسط، ارجع إلى المكتبة الصقلية: الكامل، ص.297-298؛ العبر،.490-491. وانظر أيضا: أمارى: تاريخ مسلمي صقلية، م. الثالث، ص.414. وطالع أيضا: Hady (R.I.), op.cit., T.I, PP.365-371; Mercier, op.cit., T.II, PP.92-94.

*- اشتهر منها، بنو هلال، الاثبج، عدي ورياح. ابن الأثير: الكامل، في المكتبة الصقلية، ص.298.

86- ابن الأثير: الكامل، في المكتبة الصقلية، ص.298-299. وانظر أيضا: Hady (R.I.), op.cit., T.I, PP.371-373; Chalandon, op.cit., T.II, PP.165-166.

87- آماري: تاريخ مسلمي صقلية، مج. الثالث، ص. 416. وانظر أيضا: Hady (R.I.), op.cit., T.I, P.375.

88- ابن الأثير: الكامل، في المكتبة الصقلية، ص.299. عن فتح بونة، أرجع أيضا إلى المكتبة الصقلية: نزهة المشتاق، ص.73. البيان، ص. 373؛ العبر، ص.502-503.

89- الكامل، ص.299-300؛ العبر، ص.500، في المكتبة الصقلية. وانظر أيضا: Chalandon, op.cit., T.II, PP.104,166.

90- ابن الأثير: الكامل، في المكتبة الصقلية، ص.299. يشاركه في هذا الرأي، ابن خلدون: العبر، في المكتبة الصقلية، ص. 503.

91- الكامل، في المكتبة الصقلية، ص. 300.

92- عن تفاصيل هذه القضية، ارجع إلى: آماري: تاريخ مسلمي صقلية، مج. الثالث، ص. 427- 431.

93- أنظر: Op. Cit., T. II, P. 104.(Chalandon) Chalandon

94- نزهة المشتاق، في المكتبة الصقلية، ص.73.

95- أنظر: Hady (I. R.), Op. Cit., T. I, P. 376; Chalandon, op.cit., T.II, PP.166.

96- نزهة المشتاق، في المكتبة الصقلية، ص.73.

97- أنظر: Hady (R.I.), op.cit., T.I, P.376

98- الكامل، في المكتبة الصقلية، ص. 300.

99- المختصر، في المكتبة الصقلية، ص.417.

100- تاريخ مسلمي صقلية، م. الثالث، ص. 418-419.

101- الكامل، في المكتبة الصقلية، ص.297.

ورد في نص القلقشندى: "وغلبه النصارى- أي الحسن- على المهدية وبلاد الساحل كلها". المصدر السابق، ج.5، ص.125. وأشار ابن العبرى إلى هذه الفتوحات بقوله: "وتطرقوا إلى اطراف افريقية فملكوا منها شيئا." تاريخ مختصر الدول، بيروت، لبنان 1958، ص.196.

102- أنظر: Mas LATRIE, Traités de paix et de commerce, paris1866, P. 44.

103- كتاب المعجب، في المكتبة الصقلية، ص. 319.

104- المؤنس، في المكتبة الصقلية، ص.538.

105- البيان، في المكتبة الصقلية، ص.373.

106- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، في ذيل المكتبة الصقلية، ص.63.

107- Chalandon, Op. Cit., T. II, P. 162.